بين الرافعي والعقاد

– ٥ –

« تحرقك النار أن تراها ، بله أن تصلاها »

منذ تسعمائة سنة قال الخفاجي حين ذكر البلاغة :

« لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة ، والمطبوعين على (فهمها) و(نقدها) مع كثرة من (يدعى) ذلك ، ويتحلى به ، وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجالس ، ويجارى أربابه فى المحافل . وقد كنت (أظن) أن هذا شئ مقصور على (زماننا) اليوم ، ومعروف فى (بلادنا) هذه ، حتى وجدت هذا (الداء) قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه فى كتبهما ، فعلمت أن (العادة به جارية) ، و(الرزية فيه قديمة) . ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب ، أملت وقوع الفائدة به ، إذ كان (النقص) فيما أبنته شاملًا ، و(الجهل) به عامًّا ، والعارفون به قُرحة الأدهم (١) بالإضافة إلى غيرهم ، والنسبة إلى سواهم » .

* * *

ومع ذلك ... فالأستاذ سيد قطب أحد (الأخصائيين !!) فى اللغة التى نعبر بها .

عاد الأستاذ الفاضل سيد قطب بحديثه عن الرافعىّ ، ثم عقب عليه بالحديث عنى وعما كتبت فى الكلمات السالفة . وكنت عزمت أن أدعه حتى يشفى ذات صدره من الرافعىّ ومنى ؛ وكنت أجمعت الرأى على أمر ، ثم هأنذا أتحلل من عزيمتى ... ومرة أخرى أقول كما قلت فى الكلمة الأولى : إنى سأتولج فيما لا أحب ... لا كرامة للأستاذ أو استجابة لدعائه بل لميط الأذى ... بل لميط الأذى حسبُ .

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٧) ، ١٩٣٨ ، ص : ٩٣٣ – ٩٣٥

(١) القُرْحَة : بياض يسير فى وجه الفَرَس ، وهى دون الغُرَّة . والأدهم : الأسود . وقرحة الأدهم تضرب مثلا للشيء العزيز .

ولقد علم من لم يكن يعلم أنى كتبت ما سلف هادئًا لا أهاجم ، إلا أن أترفق وأستأنى وأتصبر على كلام ينفد معه صبر الحليم ... وأنا وإن كنت لا أبالى بشىء مما يصف الأستاذ الكامل به كلامى فأنا لازلت أحفظ للقراء عهدهم قِبَلَ الكتّاب ، فلا أدع القارئ عُرْضَة لرجل يفهم القول الرفيع بالفهم الوضيع ، ولا لرجل يسىء القول فى الناس ويأبى عليهم أن يقولوا له أسأت فأجمِل . ولا لرجل يرى الظل ممدودًا له - زمن القيظ - فيتجنبه إلى وقدة الشمس ...

فهكذا أبى الأستاذ أن يأوى إلى مأوى يقيه ، وتجرد يختال علينا ، ويقتال (١) إلى نفسه جريرة شر . وما ظنى برجل يصف الرافعىّ بألفاظٍ ملفقة ، وهى على ذلك بينة الدلالة على قبح الغرض ، سافرة عن شُنْعَة الإساءة ، قليلة التذمم فى حق الأحياء بَلْهَ الأموات ممن لم تجف عن قبورهم بعدُ دموع أزواجهم وأطفالهم وذراريهم ومن يَمُتُّون إليهم بالحب والمودة والإخاء ؟

وماظنى وظنك بإنسان قد حُمِّل القلم ليستملى ، فيتنزل عليه القول من بغضاء مربدة باغية لا تتقى سوء المقال ولا مأثور الكلام ؟

وما ظنى وظنك بفهم يتعالى على سلاليم من القوارص والقواذع ، لا تجد لها فى الذى تعرف سببًا قديمًا أو علة محدثة تسوِّغ الأذى أو تحمل عليه ؟

ماظنى وظنك بهذا الرجل الذى نترفق به ونستر (نفسه ودافعها فى الحياة) بالإشارة اللطيفة ، فيأبى إلا أن يترجم القول إلى غير معناه ... إذ يسمى ما كتبت له (شتائم) ... شتائم .. ! أنف فى السماء ... أأنا يدور فى نفسى أن أكتب للأستاذ الفاضل مايسمى (شتائم) ؟ لِأَنَّا ياسيدى الأستاذ قطب أحسن ظنًا بك من هذا . ولقد قلتُ ما قلتُ من أن الناس كانوا يتعايشون بالدين والتقوى ثم رُفِع ذلك - كما قال الشعبى - فتعايشوا بالتذمم والحياء ؛ ثم رفع ذلك ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، ثم رفع ذلك ، وجاء زمان يتعايش الناس فيه (بِثَلْب الموتى) ... وهو زماننا هذا . ولو قد كنت (أخصائيًا !) فى اللغة التى يعبر بها لما زعمت أنى (رحت أتهمك بمجانبة الدين والتقوى ، والحياء والتذمم) فأنا لم أقصد إلى

---

(١) اقتال قولا : اجترّه إلى نَفْسه مِن خير أو شرّ .

ذلك ، فهو أمر قد فرغ من الحكم فيه صاحبنا الشعبى . وما كان قصدى إلا أن الذى كتبت أنت عن الرافعى الذى مات وسكت ، والعقاد الذى بقى يتكلم ، بل عنهما معًا فى قران واحد ، هو ثَلب للموتى وزُلفى للأحياء . وحق لى أن أقول ذلك فقد جمعتَ بين الرجلين ، فوضعتَ الميت موضعًا لا يتنزل إليه حىٌّ فى الضعة ، ورفعت الحى مكانًا لا يسمو إليه أحد فى الرفعة ، وضربت الكلام من هنا ومن هنا حتى استبان الغرض ..

أيريد (الأخصائى !) الفاضل أن نبين له موضع الإشارة فى كلامنا هذا ... ؟ إذن فليسمع .

حين قرأت الكلمة الأولى من حديثه فى الرسالة ، لم أشك ساعة أنه يختدع القارئ عن نفسه يبتغى أن يُفهمه أنه يريد النقد ، والنقد حسب ، ولا شىء غير النقد ! وألح فى ذلك إلحاح الظنين (١) فى الإكثار مما ينفى الظِّنَّة عنه ، غافلا عن أن تكلف نفى التهمة بالإلحاح يثير الشك ويوقظ الريبة فى نفس من أراد الله له الخير ... ثم يشرع الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) يأتى بالشواهد من كلام الرافعى فى نقد (وحى الأربعين للعقاد) ليثبت صدق ماذهب إليه من الآراء فى الرافعى .

كان يشك فى « إنسانية » الرافعى ، ويزعم أنه خواء من النفس .

ثم قرأ ماكتب الأستاذ سعيد العريان فعدّل حكمه قليلا ! ولم يعد يستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما ... فما هو ؟

كان ينكر على الرافعى « الإنسانية » فأصبح ينكر عليه « الطبع » .

وكان لا يجد عنده « الأدب الفنى » فأصبح لايجد عنده « الأدب النفسى » .

وكان الرافعى ذكيًا قوى الذهن ، ولكنه مغلق من ناحية الطبع والأريحية .

والرافعى أديب الذهن الوضاء ، والذكاء اللماع !

والرافعى مغلق القلب متفتح العقل وحده للفتات والومضات . وهذا فى المقالة الأولى ، ثم نزل درجة بالرافعى فى الكلمة الثانية ، ثم لم يكد يرمى الثالثة حتى زعم أنه حين عاد بعد ذلك فقرأ رسائل الأحزان أحسَّ أنه (خُدع !) فى

---

(١) الظنين : المتَّهم .

قياس ذكاء الرافعى ! ومعرفة طبيعته ودرجته ! ولكنه يحس الغضاضة فى هذا التراجع فيعزّيه « الصدق » ! الذى يعبِّر عنه حين ينصت لإحساسه ويصور حقيقة رأيه ... وتأويل ذلك عنده فى مقاله الثالث أنه أخطأ فى عدم ! تحديد (الذهن) ... فمن الذهن ماهو سليم أو مريض ، وماهو مشرقٌ أو خابٍ ، وماهو متفتح أو مغلق ، (أو كما قال) ...

لقد قال فى الكلمة الأولى ما رأيت ، ثم قال فى الثالثة ما رأيت من تراجعه ، ولقد كان هذا التراجع فى الثالثة مطويًّا تحت الكلمات فى الأولى وفهمناه وأدركناه ، وكان آخر الرأيين هو الغرض الذى يسعى إليه . وإلا فما أظن أحدًا يستطيع أن يعقل أن (ناقدًا) قد فرض على نفسه النقد - أى التتبع والاستيعاب وصدق النظر - يصف رجلا « بالذهن الوضاء » « والذكاء اللماع » والقوة فى الذهن ، والتفتح فى العقل ، ثم لا تمضى عشرة أيام ... فيقرأ أحد كتب هذا الرجل ، فيعود يقول فى صفته إن ذهنه مريض غير سليم ، « خاب غير مشرق » ، « مغلق غير متفتح » .

أيريد الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) بيانًا هو أوضح من هذا على سوء غرضِه .. ؟ الناقد رجل عَدْل مُنصِف لا يزال يتتبع شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى يستنبئها أخبار أصحابها ويستنبط من قلوبها أسرار كتابها ، ويكشف عنها خبيئة قائليها .. ، ثم يحكم مميزًا مقدرا لا يجورُ فيتجاوز الغاية ، ولا يحيف فيقعُ دون المدى . وقد حكم هذا (الأخصائىُّ !!) فى كلمته الأولى حكمه الأول حين (استطاع أن يكون ناقدًا ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلّله) !! كما قال فى بدء كلامه .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل - أن يكون قرأ كل ماطُبع من كتب الرافعى دون ما تفرق من كلامه فى الجرائد والمجلات على كثرتها .. ؟ بلى .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل أيضًا (أن يكون حين حُكمه قد استردَّ شتات ما بقى فى نفسه من آثار كلام الرافعى فيها ؟ قالوا بلى .

أو ليس يقتضى حق النقد والحكم - على الأقل أيضًا - ألا يصفَ الرافعى بالذكاء اللماع ، والذهن الوضاء ... وهذا الكلام المفخم - إلا أن يكون ذلك من آثار ما قرأ له من شىء ...؟ قالوا بلى .

إذن فكيف – فى عشرة أيام ياسيدى – يستطيع كتاب واحد للرافعى هو « رسائل الأحزان » أن يقلب – هذا (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، وهذا الذى (استطاع !! أن يكون ناقدا) – رأسا على عقب ، فلا يكتفى بسلب النعوت المفخمة (كالوضاءِ واللماع والمتفتِّح) فيترك الذهن هكذا مجردا ، بل يضع مكانها أضدادها فيجعله ذهنا « مريضًا خابيًا غير لمّاع ولا وضاء ، مغلقًا غير متفتِّح » .

هآه ... إنى لأشك كل الشك فى براءة الأستاذ مما غاظه من كلمتى الأولى مما سماه (شتائم) . ولقد شهدت مرة أخرى « أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد وشعره ، فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله » . ولا زلت أقول له : « إنه لو عاد إلى داره مخلى من حوافز الحياة الدنيا » فقرأ ماكتب قراءة الناقد لوجد الاختلاط فى لفظه بينًا ، والغرض من ورائها متكشفًا . ولو شئنا أن نقول لقلنا فلم نكذب : إن كلامه لمشترك بين ضربين من العقل أحدهما ظاهره نعرفه ولا ننكره لأنه مما عهدناه زمانًا ، والآخر ظاهر أيضًا ... نعرفه وننكره ، لأنه مما استحدث الرافعى رحمة الله عليه .

وأما الأديب الكبير ! الّذى لقى الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) فضرب لنا الأمثال « بالجماعة الذين يجلسون فى المأتم ويرجمون الناس بالحجارة . فإذا رجمهم الناس صاحوا وولولوا ، وملأوا الدنيا تسخطًا ونعيًا على الأخلاق ، لأن الناس لايقدرون حرمة المأتم ، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة » . فإن شاء أن يختفى فى ألفاظ الأستاذ (الأخصائى !) فهو عتيق جُبنه ، وإن شاء أن يظهر من ورائه فسيرى كيف عرفناه من لفظه ومن أمثاله .

وأيما كان ... فالمثل فاسد من وجوهه كلها ... فإن الأستاذ سعيد حين كتب لم يرجم أحدًا ، وإنما كتب تاريخًا ، وحين قال إن رد العقاد على الرافعى سباب وشتائم ، فهو لم يكن إلا كذلك ، ولا يمكن أن يقال فيه إلا ذلك ... إذ ليس فيه شىء مما يسوغ أن يعد ردًّا أو نقدًا ... حتى ولا على طريقة الأستاذ (الأخصائى !) فى حل المنظوم ووصفه بالدعابة والطرافة والحيوية ... وما إلى ذلك من اللفظ الذى لا يتخذه ناقد إلا بعد الإبانة عن محجته وسبيله . أو كما قال

الأستاذ (الأخصائى !) فى كلمته الأولى « فى الناقد الذى لا يكتفى بالتذوق والاستحسان والاستهجان ، ولكن يعلل ! مايحس ويحلله » .

ومع ذلك فهل يرى أحد أن (حل المنظوم) فى ألفاظ ملفقة مذيلة ، ثم نعته بالطرافة والحيوية ... إلخ ، هو التعليل والتحليل الذى يتخذه النقاد أسلوبًا لهم ؟ .

ومع ذلك أيضًا ... فلو فرض أن « سعيدًا » رجم المارة ، والمارة ههنا هم الأستاذ العقاد وحده ، فلم تطفل الأستاذ (الأخصائى) فقاذف الأستاذ العريان ؟ ولِمَ لَمْ يدع ذلك للمرجوم نفسه ... ؟

ثم وراء ذلك كله ...تطفل (الأستاذ الأخصائى !) للقذف والرجم ، فلِمَ لَمْ يخص سعيدًا وحده دون أصدقاء الرافعى وأصحابه يتحداهم ويتناولهم بالأذى غير متذمم ... كأن أصدقاء الرافعى وأصحابه هم الذين كتبوا لسعيد ماكتب !!

* * *

وبعد فهذه كلمة كتبناها لنقرر حقيقة واحدة هى أن الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، كان فى أول حديثه عنى – حين انتهى من حديث الرافعى – يضطرب ويؤخذ ويتناوح كأنه قصبة مرضوضة معلقة على عود هش قد يبس ... أريد أن أقول بلفظ آخر إنه كان يضطرب لأن حججه التى يتعلق بها حجج فاسدة ، وإن أصل كلامه عن الرافعى خائر يتصدع ، وإن فكره فى الذى كتب لم يستقر على شىء صحيح لا يختلف عليه .

وسيرى فيما يستقبل [١] من كلامنا أنه قد عجز كل العجز عن الإتيان بشىء يمكن أن يسمى نقدًا . وسيرى أيضًا أن النقد الذى نأخذ أنفسنا به لا يجور على العقاد ، ولا يميل بنا إلى الرافعى . ويكفيه مما مضى فى كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة ، وأننا لم ننزه الرافعى ولم نقل فيه بعض مايقول هو فى الشاعر الكبير صاحبه .

* * *

(١) لم يكتب الأستاذ شاكر بعد ذلك شيئا فى أمر العقاد والرافعى ، ولم يواصل رده على سيد قطب .